

بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي

بقلم الدكتور : جمعة شيخة

التعريف بالمؤلف :

مؤلف هذه الرحلة الحجازية* هو عبد الله بن الصباح الأصبحي. لا نجد له ذكرا في كتب التراجم، والسبب بسيط لأنه لا ينتسب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء. وكل ما نعرفه عنه مقتبس من رحلته.

وأول ما نعرفه عنه من خلال هذه الرحلة أنه من سكان مدينة المرية. واستمر في الإقامة بها حتى بعد سقوطها في يد فرديناند الأراغوني سنة 1490/895. وهو ينتمي إلى قبيلة عربية قحطانية من الجنوب، هي قبيلة الصباحين اليمانية. والمؤلف لا يترك أية مناسبة قرّ دون التنويه بأمجاد هذه القبيلة وبطولاتها، سواء في العصور القديمة أو في العهد الإسلامي. وقد ذكر أنها إحدى القبائل التي دخلت الأندلس عند فتحها في نهاية القرن 1 هـ / 7م.

وتدلّ المعلومات التي نجدها في الرحلة أن له ثقافة دينية متوسطة، وثقافة تاريخية أسطورية تبعده كل البعد عن صفة العالم المدقق. كما أن لغته وما فيها من أخطاء، وأسلوبه وما فيه من تعثر، واستطراداته وما فيها من خلط، تجعله بعيدا كل البعد عن صفة الكاتب القدير والمؤلف البصير. ومع ذلك فإن رحلته من هذه الناحية هامة لأنها تقدّم لنا صورة عن مستوى الثقافة السائدة في ذلك العصر وخاصة في الوسط الموريسكي. ومن ناحية أخرى يبدو الرجل حافظا للقرآن والحديث قادرا على الاستشهاد بهما في المكان المناسب. وقد صرح بأنه حفظ القرآن بمكة عندما جاور بها سنة كاملة. وكان وهو في طريقه إلى الحج يغتنم الفرصة في أهم المدن الإسلامية التي مرّ بها للأخذ عن علماء عصره.

وما كان للمؤلف أن يقوم بهذه الرحلة لولا ما توفّر لديه من مال حلال. كما يحلو له أن يصفه - ورثه عن أبويه بالأندلس، وما كان يتمتّع به من شباب وصحة مكّنه من التغلب على مشقّات السفر وأخطاره، وقد وصف لنا منها الكثير في رحلته.

(*) هذه الرحلة مازالت مخطوطة برصيد دار الكتب الوطنية بتونس. وقد بدأنا في تحقيقها.

التعريف بالرحلة :

أما الرحلة فقد جعلها ابن الصبّاح تحت عنوان : « منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار » ، مقلدا كبار الكتاب في جعل عناوين كتبهم في عبارتين مسجوعتين . وكلمة منشاب من نشب ينشَبُ نشَبًا ونشوبا ونشبة الشيء في الشيء : علّق ، والصيغة التي جاءت عليها الكلمة صيغة مبالغة « مفعّال » : لقد قصد المؤلف أن تكون رحلته كالآلة التي يعلق بها كل شيء وبالتالي تلتقط كل الأخبار . أما كلمة « تذكرة » فاستعملها ابن الصبّاح في معناها الديني لأنّه أشار في المقدمة أن له غاية من إملاء هذه الرحلة إذ اختصرها « في هذا الكتاب عبارة (المقصود عبرة) وإخباراً لهم (المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها في يد النصارى) بما في أرض الله من البلاد والعمائر والإسلام من أمة محمد (صلعم) »⁽¹⁾ . فالتعريف بأرض الإسلام المترامية الأطراف لتعزيز الروح الدينية في نفوس المدجنين بالأندلس غاية قصد المؤلف بلوغها . وفعلا فقد أملى ابن الصبّاح رحلته بعد أن أصبح سكّان المربة من المدجنين أي بعد سقوط المدينة سنة 1490/895 . وأملاها من ذاكرته وهو بين الستين والسبعين من عمره وقد ضعف بصره . ولئن خلت الرحلة من التواريخ لإعانتنا على ضبط زمن الرحلة ، فإنّه بالاعتماد على ما سبق ، وبالا اعتماد على بعض أسماء السلاطين الأتراك كمراد الثاني (ت 1452/855) وأسماء بعض العلماء كبدّر الدين البلقيني (ت 1485/890) ، فإننا نرجّح أنّه قام بهذه الرحلة في أواخر النصف الأول من القرن 9 هـ / 15 م ، وبداية النصف الثاني منه . وكان في ذلك الوقت - كما أشار إلى ذلك بنفسه - في عنفوان شبابه⁽²⁾ .

النزعة التمجيدية والمنهج التعليمي في الرحلة :

لقد أملى ابن الصبّاح رحلته وقد أصبح في أرض خرجت عن دار الإسلام ، وأصبحت تحت النفوذ النصراني مع أقلية من المسلمين فضّلوا البقاء في وطنهم ، ولكنهم كانوا مهتدين في قيمهم الدينية والحضارية . فوجب الأخوة الدينية يفرض عليه أن يقدم خدمات لهذه الأقلية نظرا إلى تجرّبه وإلى زاده المعرفي الذي هو زاد لا يستهان به بالنسبة إلى المستوى الثقافي الذي أصبحت عليه هذه الأقلية . وأكبر الأخطار التي كانت تهدّد هذه المجموعة هو الجهل بتعاليم الدين وما يتبع ذلك من خطر التنصير الاختياري أو الإجباري . لذا عمد صاحب الرحلة إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية التي كانت الغاية منها تمجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس أهله من المدجنين باتباع منهج تلقيني تعليمي :

(1) منشاب ص 272 ط ، ص 273 و .

(2) منشاب ص 207 و .

1 - **المظهر التمجيدى** : لقد خرج المؤلف من المربة إلى غرناطة عاصمة بني الأحمر في ذلك الوقت، ثم انتقل إلى سبتة وزار مراكش وفاس، وقصد تلمسان ووهران ثم الجزائر وتونس فطرابلس والإسكندرية ووصل إلى القاهرة، ومنها قصد مكة فالمدينة فبيت المقدس. ومنها سافر إلى بلاد الشام فتركيا وبلاد فارس ثم العراق. وبذلك يكون قد زار الجزء الأكبر من العالم الإسلامي شرقا وغربا. وكان في كل بلد يمر به ينوّه بتبحر عمرانه ووفرة خيراته وتنوع تجارته وجمال طبيعته وعظمة سلطانه ونبل أخلاق أهله، ولا سيما في الأماكن المقدسة كمكة والمدينة وبيت المقدس⁽³⁾. وهو لا يقتصر على ذكر الأماكن المقدسة الإسلامية، وإنما يذكر الأماكن المقدسة النصرانية واليهودية⁽⁴⁾.

وهو لا ينفك يدعو لكل هذه البلدان بدوام العمران وقوة السلطان في ظل راية التوحيد والإسلام⁽⁵⁾. ولا شك أن حالته مع إخوانه المدجنين - وهم تحت النفوذ النصراني - ذكرت بحالة النصارى واليهود تحت الحكم الإسلامي بالمشرق، فتراه - عن طريق التعويض النفسي - يشير إلى عز الإسلام وعظمته وإلى رضوخ أصحاب الديانات الأخرى لحكام المسلمين بدفع الجزية لهم عن يد وهم صاغرون، كما هو الحال بالنسبة إلى نصارى ويهود بيت المقدس، وملك القسطنطينية ورعاياه مع السلطان العثماني⁽⁶⁾.

وفي نطاق هذه النظرة التمجيدية ما فتى صاحب الرحلة يذكر إخوانه المدجنين بأهم فترات التاريخ الإسلامي الزاهية، وبأعظم رجالاته ممن قاموا بفريضة الجهاد حق قيام. وكان في كل مدينة يمر بها يعدد الأماكن المقدسة كأضرحة الرسل والأنبياء ومزارات الصحابة والأولياء وقبور العلماء والأتقياء، وينوّه بكتبهم ويذكر بعض عناوين مؤلفاتهم⁽⁷⁾.

ورغم ما يبدو من تعصبه لقبيلته اليمينية، فإنه كان ينظر إلى العالم الإسلامي باعتباره وحدة منسجمة لا يفسدها إلا الخوارج والمجسمة والشيعية. وهو لا يقسم العالم الإسلامي عرقيا أو سياسيا أو جغرافيا، وإنما يقسمه مذهبيا حسب المذاهب السنية الأربعة، وينوّه بها جميعا. ويرى أن ما نجده من اختلاف بينها هو رحمة للمسلمين، وكل الأحكام في هذه المذاهب السنية مستنتجة من محكم القرآن ومحكم الأحاديث، فلا مجال لدحض ما ذهبوا إليه وإن

(3) منشاب ص 272 ط، ص 273 و. أشار ابن الصباغ فقط إلى شراسة أهل طرابلس وبخل أهل فارس.

(4) ذكر جبل الطور الذي نزلت فيه التوراة على موسى ص 113 و. وعندما مر به صاحب الرحلة كان يسكنه رهبان من النصارى. وذكر وادي موسى ص 178 و، وكنيسة صهيون موضع نزول المائدة على عيسى ص 223 و. إلخ...

(5) منشاب ص 5 و، ص 64 ط.

(6) منشاب ص 273 و.

(7) منشاب ورقة 52، ورقة 54.

اختلفوا⁽⁸⁾. كما قسّم العالم الإسلامي تقسيماً ثانياً حسب القراءات السبع، ونوّه بكلّ تلك القراءات مذكراً بقراءة أهل المغرب وتشبّثهم بمذهب مالك⁽⁹⁾.

2 - **المظهر التعليمي** : لقد أشار صاحب الرّحلة إلى صعوبة الحياة بالأندلس بالنسبة إلى المدجنين، وإلى الجهل الذي أصبحوا عليه فهم «صمّ بكم» حسب تعبيره⁽¹⁰⁾، لذا حرص ابن الصّبّاح أن يعلم هؤلاء المدجنين دينهم، أو على الأقلّ يذكرهم بأنهم تعالىمه ومناسكه كالحجّ والعمرة.

وأوّل مظهر تعليمي يبدو لنا من خلال هذه الرّحلة كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والسّنّة النبويّة بدرجة ثانية. وكان ابن الصّبّاح أراد أن تضمّ رحلته أغلب الآيات والأحاديث التي يحتاجها المسلم في عقيدته وعبادته ومعاملاته، فلا نكاد نجد صفحة بدون استشهاد أو أكثر من كتاب المسلمين المقدّس ومن سنّة نبيّهم. ويقوم المؤلّف في بعض الأحيان بالتعليق عليها وشرحها لمزيد تقريبها إلى الأذهان⁽¹¹⁾. وكم من مرّة ذكر بواجبات المسلم الدّينيّة كالصّلاة والزّكاة والحجّ. وبالنسبة إلى هذا الركن الأخير قام صاحب الرّحلة بوصف جميع مراحل العمرة والحجّ بتفصيل وتوضيح كبيرين⁽¹²⁾.

وقد ألحّ المؤلّف خاصّة علي وجوب معرفة وحدانيّة الخالق والإيمان به بدون تقليد. ويكفي المرء أن يتفهّم - دون إعانة من أحد - صورة الإخلاص حتّى تتراءى له وحدانيّة الخالق دون لبس أو شكّ. وكلّ شيء في الدّين يجوز فيه التّقليد إلّا معرفة وحدانيّة الخالق، فهذه علي المرء أن يصل إليها بنفسه، لأنّ علم وحدانيّة الله لا يفي به التّقليد بل «إنّ التّقليد فيه كفر محض»⁽¹³⁾.

ويتجنّب ابن الصّبّاح الدّخول في تفاصيل حول حقيقة المسيح وقضيّة صلبه أو رفعه مخافة أن يشوّش على العامّة إيمانهم، خاصّة وقد تعرّض هو نفسه إلى وسوسة الشّيطان في هذه القضية، لولا رجوعه سريعاً إلى جادة الإيمان وطمسكه بالآية التي تنفي الصّلب عن المسيح وتؤكد رفعه إلى السّماء بجوار ربّ العالمين.

(8) منشاب ص 216 و.

(9) منشاب ص 269 ظ.

(10) منشاب ص 272 ظ.

(11) منشاب ص 157 و ، ص 165 ظ.

(12) منشاب ص 116 ظ ، ص 117 و.

(13) منشاب ص 271 ظ.

وتبدو التَّزعة التَّعليميَّة في رحلة ابن الصَّبَّاح من الصُّور التي رسمها - وحلَّى بها كتابه - للأماكن المقدَّسة كمكَّة⁽¹⁴⁾ والكعبة الشَّريفة بها⁽¹⁵⁾ ومسجد الرُّسول⁽¹⁶⁾ بالمدينة والمسجد الأقصى⁽¹⁷⁾ ببيت المقدس وحرم الخليل⁽¹⁸⁾.

بعض القضايا الدينيَّة في رحلة ابن الصَّبَّاح :

كان عبد الله بن الصَّبَّاح أثناء وصفه لرحلته يتعرَّض إلى بعض القضايا الدينيَّة.

ومن هذه القضايا :

1 - قضية الجهاد والعبادة أيَّهما أفضل؟ يبدو أنَّ صاحب الرِّحلة متمسك بوجوب تفضيل الجهاد على العبادة⁽¹⁹⁾. بل يذهب إلى أنَّ من فضَّل العبادة على الجهاد وتسبَّب بذلك في ضرر للمسلمين فقد أذنب. وهنا يستشهد بأسطورة رائجة في ذلك الوقت ومفادها أنَّ ضياع الأندلس راجع إلى تخلي المنصور الموحدِّي عن الجهاد والملك لابنه الصَّغير محمَّد وهجرته إلى الشَّرق للعبادة والمجاورة، وقد التقى بالمشرك بملك خراسان إبراهيم بن أدهم. وكان هو الآخر قد تخلى عن سلطانه لنفس السَّبب⁽²⁰⁾. ويأسف ابن الصَّبَّاح لِمَا فعله المنصور الموحدِّي ويؤكد على أنَّ «عدل السُّلطان ومقاومة البدع والجهاد في سبيل الله وحماية أعراض المسلمين أفضل من عبادة 70 سنة»⁽²¹⁾.

ويفضِّل ابن الصَّبَّاح في هذا السِّياق بلاد الأندلس عن سائر البلاد. فقد دخل البلدان وعاشر العباد فلم يرَ أَفْضَلَ ولا أَحْسَنَ من مُلْك الأندلس، ساكنها سعيد والميَّت فيها شهيد⁽²²⁾.

2 - العدل الإلهي : يرى ابن الصَّبَّاح أنَّ ضياع الأندلس هو ضرب من العدل الإلهي. فأهل الأندلس «منعوا الزكاة وضيَّعوا الصَّلَاة... وارتكبوا المعاصي... وتعدَّوا حدود الله وضيَّعوا الشَّرع... فسَلَطَ الله عليهم عدوَّهم وسلب منهم بلادهم»⁽²³⁾. إنَّ تعدِّي حدود الله - في

(14) منشاب ص 121 ظ.

(15) منشاب ص 122 و.

(16) منشاب ص 170 ظ.

(17) منشاب ص 202 ظ.

(18) منشاب ص 198 ظ.

(19) منشاب ص 33 ظ.

(20) منشاب ورقة 10 ، 11.

(21) منشاب ورقة 14.

(22) منشاب ص 21 ظ.

(23) منشاب ورقة 8.

نظر صاحب الرحلة - هو تغيير لنعمة الإسلام. ومن غير شيئا في دين الإسلام مما يُنكر الشرع فإن الله يُغيّر عليه كل النعم. ثم يستشهد بقوله تعالى «نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ». ويشرح هذه الآية ويرى أن المراد بالنسيان هنا هو التبديل كما جاء في قوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا». فلما تبدل أهل الأندلس بدل الله النعمة عليهم نعمة. وهذه النعمة منه عدل محض كما كانت النعمة منه قبل ذلك فضلا صرفا⁽²⁴⁾. وقد فعل الخالق نفس الشيء مع آدم عندما أذنّب إذ أخرجه من جنّة السّماء. وبما أن أهل الأندلس أذنبوا كجذهم، فقد وقع طردهم من جنّة الأرض⁽²⁵⁾. ويدعم صاحب الرحلة قياسه هذا بوصفه لأهل طرابلس: قاله بلاهم بالجوع والخوف لكثرة ذنوبهم. فهم والحالة تلك يشبهون أهل مكّة عندما أذنبوا «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ»⁽²⁶⁾.

3 - قضية بقاء المسلم تحت حكم النصارى بالأندلس: لقد أفتى علماء إفريقية في هذه القضية، واعتبروا البقاء محرّماً مع القدرة على الخروج. وهم في موقفهم هذا كانوا نظريّين غير واقعيّين. أمّا صاحب الرحلة فيتألم لضياح الأندلس ويدعو الله أن يكلأ المسلمين بعين رعايته، وخاصّة من بقي منهم في الأندلس تحت الدّمة. وأن يعفو بمنّه وكرمه على من كان قادراً منهم على الخروج ولم يخرج. وهذا ينطبق عليه هو بالدرجة الأولى. فقد جال في أصقاع العالم الإسلامي تقريبا. وفي نهاية المطاف رجع ليعيش في وطنه تحت الحكم النّصراني. فالبقاء في الأندلس بالنسبة إلى المدجنين القادرين على الخروج هو ذنب - في نظره - ولكنه مغفور من ربّ رحيم.

4 - محصنة الأنبياء: يتعرّض ابن الصّباح إلى هذه القضية عرضا عندما ذكر أن الرّسول (صلعم) أمر وحشياً قاتل حمزة بعد إسلامه ألا يصلّي وراءه مباشرة. وهذا بطبيعة الحال لا يجوز لأن الإسلام يسوّي بين المسلمين جميعا. ولكن الطّبع البشري غلب على الرّسول (صلعم). فهل في ذلك مسّ بعصمته باعتباره نبياً؟ يرى صاحب الرحلة أن تصرف النّبي مع وحشيّ هو من باب ما يرجع إلى الطبيعة البشريّة، والأنبياء ليسوا معصومين منه. فكلّ ما يقع لبني آدم، باستثناء الكبائر، يجوز في حقّه وحقّهم صلوات الله عليهم⁽²⁷⁾.

5 - الحكم على السّارق: حدّ السّارق في الإسلام معروف وهو قطع اليد. ولكن عمر بن الخطّاب في عام المجاعة لم يطبقه. وفي زمن المؤلّف وبالضّبط في مدينة الإسكندرية وقع

(24) منشاب ص 9 و.

(25) منشاب ص 18 و.

(26) منشاب ص 73 ظ.

(27) منشاب ورقة 48.

شئق السَّارِق على بيضة. وهذا تجاوز لحدود الإسلام مع قسوة لا مبرر لها. لكنَّ ابن الصَّبَّاح بعد أن رأى ما يتعرَّض له الحجاج في جبل عرفات ومنى من جرأة اللصوص وتعنتهم، حَبَّ ما رآه من شدة في الإسكندرية حتَّى يقع قطع دابر هذه الآفة من بلاد الإسلام⁽²⁸⁾.

6. قضية صلب المسيح : موقف الإسلام من صلب المسيح واضح. قال تعالى «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» ويتعرَّض ابن الصَّبَّاح لهذه القضية عند وصوله إلى الإسكندرية فقد ذكر أن إقليش اليوناني من ولد أرسطاطاليس الحكيم هو الذي بني الإسكندرية. وكانت مع أمه الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السَّلام. وذات ليلة رأى إقليش في منامه أنه وأمّه يعبدان هذا الصليب. فكان أولًا من عبد الصليب وتبَّعه من كُتِب عليه الشقاء والعذاب حسب تعبير صاحب الرحلة.

ويبدو أن هذه الأسطورة أثَّرت في ابن الصَّبَّاح فرجع إلى أسفار اليهود وأخبارهم يقرؤها، فدخله الهم والشك في مسألة رفع عيسى عليه السَّلام. وزين له الشيطان عكس ما جاء في العقيدة الإسلامية، فكاد ينحرف عنها لولا أن هداه الله بنور القرآن، فتذكَّر ما جاء من آيات سكنت لها نفسه واطمأنت. ومع ذلك عاد ليؤكد أن النَّصارى مَعْدُورُونَ في ضلالهم لأنَّ الحدث وقع ليلا. وأرسل الله في تلك الليلة الغمام. فاختلط الحابل بالنَّابل وتشابهت الوجوه والأصوات، فكان الالتباس: هل رُفِعَ المسيح أو صلب؟ ويتجنَّب عبد الله بن الصَّبَّاح مزيد الخوض في هذه النقطة خوفا على العامة من النَّاس. ويحمد الله علي نعمة الهداية بالقرآن الكريم⁽²⁹⁾.

7. الحجَّ إلى بيت المقدس : يميل صاحب الرحلة إلى أنه يمكن - بالنسبة إلى من لاقدرة لهم على الحجَّ بالذهاب إلى مكة - أن يكتفوا بالحجَّ إلى بيت المقدس ويسمَّيه حجَّ الضَّرورة. وهذا ما كان يفعله بعض المسلمين، ولاحظه ابن الصَّبَّاح عندما وصل إلى بيت المقدس ورواه كافيا بالنسبة إلى ضعاف المسلمين ماديا وصحيا⁽³⁰⁾.

8. النَّصارى في رحلة ابن الصَّبَّاح : ذكر المؤلف النَّصارى واليهود مركات متعدِّدة في سياق حديثه عن ضلالهم، وفي معرض كلامه عن عزة الإسلام في بيت المقدس وبلاد التَّرك، وكيف كان هؤلاء يدفعون الجزية لحكَّام المسلمين. كما جاء ذكرهم - وخاصة النَّصارى - في ثلاث مناسبات لها بعد إنساني:

أ - في بيوت : دخل ابن الصَّبَّاح في نقاش مع نصراني حول التجارة في بلاد الإسلام ومقارنتها بالتجارة في أرض النَّصارى. وقد أعجب بوجهة نظر النَّصراني في تحليله، كما أعجب بذكائه وفطنته⁽³¹⁾.

(28) منشاب ص 84 ط.

(29) منشاب ص 80 ط ، ص 81 و.

(30) منشاب ص 217 ط.

(31) منشاب ص 66 ط.

ب. في بلاد الشام : ربط صاحب الرحلة علاقات وطيدة مع الرهبان⁽³²⁾. وطلبوا منه وصف الكعبة لهم ففعل، وطلبوا منه أن يدعو لهم - وهو الحاج صاحب البركة - فاحتار في كيفية الدعاء، ولكنه في نهاية الأمر تطفن وقال «اللهم أمتهم على خير الأديان» فقالوا : آمين⁽³³⁾. والتقى كذلك بامرأة أعجب بحالها، فاعترفت له بأنها نصرانية وأطعمته خبزاً ولبناً، وطلبت منه أن يدعو لها ولأبنائها، فدعا لها بمثل دعوته للرهبان⁽³⁴⁾.

ح. في القسطنطينية : دخلها صاحب الرحلة وهي مازالت تحت النفوذ البيزنطي. وكانت له رغبة ملحة في زيارة كنيسة آيا صوفيا. فلما دخلها متكرراً سأل عن بعض الأشياء المعلقة في قبتها، فعرف عن طريق عربي نصراني أنها قميص يوسف ورداء مريم وثوب هارون وكانت كلها بيضاء. أما العصا فهي عكاز عيسى عليه السلام، وأما الآتية من نحاس فهي الوعاء الذي كان يأكل فيه عيسى البسيصة في سياحته وأثناء تجواله. وتطفن له الراكب صاحب الكنيسة وهو يعين النظر في تلك الأشياء، فوصفه بأنه شرّ أي مسلم. فتدخل بعض الجنوئين وسألوا ابن الصبح عن معتقده بلسان الإفرنج، فأكد لهم إيمانه بعيسى، وبما أنزله الله عليه من كتاب. فهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء. وترجم الجنوئين للراكب كلام ابن الصبح وذكروا له أنه رجل فاضل (فضلاي). ولكن الراكب فهم مراوغة ابن الصبح، فلم يقتنع بكلامه، فكثر الجدل بينهم. فتركهم ابن الصبح يتجادلون وانتقل إلى جهة أخرى من الكنيسة لينظر إلى تمثال من نحاس لقسطنطين بن هرقل⁽³⁵⁾.

9. موقف صاحب الرحلة من الأديان الأخوس : كان ابن الصبح وهو يتجول في العالم الإسلامي، وخاصة في المشرق، يصف الأماكن المقدسة الإسلامية، كما كان يذكر ويصف الأماكن المقدسة النصرانية واليهودية كجبل الطور الذي نزلت فيه التوراة على موسى⁽³⁶⁾. وكنيسة صهيون التي نزلت فيها المائدة على عيسى⁽³⁷⁾، وبيت لحم حيث ولد المسيح الخ... وهذا أمر طبيعي من مسلم. لكن الغريب هو أن ابن الصبح يحاول أن يفسر ويرر بعض الطقوس في ديانات أخرى غير سماوية : فعبد النار - في نظره - عبدوها محبة في إبراهيم لأنها لم تحرقه وعبد الشمس عبدوها لضوئها، وعبد الظلمة عبدوها لأنها حجاب عن الفواحش، وعبد النجوم عبدوها لأنه يقتدي بها، وعبد السماء عبدوها لأن منها تنزل الأمطار⁽³⁸⁾.

(32) منشاب ص 205 و ، ظ.

(33) منشاب ص 207 و.

(34) منشاب ص 207 و.

(35) منشاب ص 113 و.

(36) منشاب ص 223 و.

(37) منشاب ص 249 ظ ، ص 250 و.

(38) منشاب ص 249 ظ، 250 و.

الذاتية :

وهكذا نرى أن رحلة ابن الصبّاح لا تخلو من فوائد من الناحية الدنيوية، كما أنها لا تخلو من طرائف ووجهات نظر قد لا نجدّها في كتب الفقهاء التقليديين. وأفكار صاحب الرحلة مع بساطتها تمثل مستوى ثقافيّ معيّن في القرن الذي عاش فيه.

ومن جهة ثانية نلاحظ أن رحلة ابن الصبّاح لئن كانت مفيدة من هذا الجانب الدنيوي، فإنّها لا تخلو من فوائد أخرى كثيرة تتعلق بالناحية العمرانية والاقتصادية، وهي شهادة حيّة وناطقة عن الحياة الثقافية والاجتماعية في كثير من عواصم العالم الإسلامي في القرن 9 هـ / 15م. /.